

الأزهر

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

لمؤلفه

محمد الخضرى "بك"

الجزء الثالث

إعداد

رئيس التحرير

د. على أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية - جمادى الأولى ١٤١٢هـ



الأزهر

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

لمؤلفه

محمد الخضرى "بك"

الجزء الثالث

إعداد

رئيس التحرير

د. على أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية - جمادى الأولى ١٤١٢ هـ

(غزوة بنى المُصْطَلِق)

فى شعبان بلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين فى (أحد) يجمع الجموع لحربه ، فخرج له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جمع كثير ، وولى على المدينة (زيد بن حارثة) ، وخرج معه ـ من نسائه ـ عائشة ، وأم سلمة ، وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط فى غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا ، وفى أثناء مسيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ التقى بعين بنى المصطلق ، فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله . ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجىء المسلمين لحربه ، وأنهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفاً شديداً حتى تفرق عنه بعضهم ولما وصل المسلمون إلى المُرَيْسِيْع [1] تصافَّ الفريقان للقتال بعد أن عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا فتراموا بالنبل ساعة ، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب ؛ بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية ، واستاقوا الإبل والشياه ، وكانت الإبل ألفي بعير والشياهُ خمسة آلاف استعمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ضبطها مولاه (شقران) وعلى الأسرى

---

(١) ماء لخزاعة على يوم من الفرع[1] وإليه تضاف غزوة بنى المصطلق وفيها سقط عقد عائشة .

(١) اسم مكان .

(بريدة) وكان فى نساء المشركين (برة بنت الحارث) سيد القوم ، وقد أخذ من قومها مئتا بيت أسرى وزعت على المسلمين ، وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم ؛ فإن بني المصطلق من أعز العرب داراً ، فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً ، فأراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث التى سماها جويرية ، فقال المسلمون : أصهار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينبغى أسرهم فى أيدينا ، فمنوا عليهم بالعتق فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها ، كما قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق على بكرة أبيهم ، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم .

وقد حصل فى هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعادتا بالتفريق على المسلمين .

فأولاهما : أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج فضرب الأجيرُ الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الأجير بالمهاجرين فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ فقال : ما بال دعوى الجاهلية (وهى مايقال فى الاستغاثة يالفلان) ، فأخبر الخبر ، فقال : دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة . ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه ، وبذلك سكنت الفتنة ؛ فلما بلغ عبدالله بن أبيّ هذا الخصام غضب ، وكان عنده رهط من الخزرج فقال :

ما رأيت كاليوم مذلة أو قد فعلوها ، نافرونا فى ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) ، ثم التفت إلى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده .

وكان فى مجلسه شاب حديث السن قوى الإسلام اسمه (زيد بن أرقم) فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه ، وقال ياغلام : لعلك غضبت عليه فقلت ماقلت فقال : والله يارسول الله لقد سمعته . قال : لعله أخطأ سمعك فاستأذن عمر الرسول فى قتل ابن أبيّ ، أو أن يأمر أحداً غيره بقتله ، فنهاه عن ذلك ، وقال : كيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ثم أذن بالرحيل فى وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك - صلى الله عليه وسلم - شغل الناس عن التكلم فى هذا الموضوع ، فجاءه أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال فى هذا الوقت ، فقال : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ، زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ قال : أنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز .

ثم سار - صلى الله عليه وسلم - بالناس سيراً حثيثاً حتى آذتهم الشمس ، فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً ، وكلم رجال من الأنصار عبدالله بن

أبيّ فى أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر ، وهنا نزل على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة المنافقين التى فضحت عبدالله بن أبيّ وإخوانه ، وصدقت زيد بن أرقم ، ولما بلغ ذلك عبدالله بن عبدالله بن أبيّ استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد فأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإحسان إلى أبيه .

(حديث الإفك)

النادرة الثانية : وهى أفظع من الأولى ، وأجلب منها للمصائب ، وهى رمى (عائشة الصديقية) زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإفك فاتهموها بـ (صفوان بن المعطل السلمى) ، وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة بالرحيل ، وكانت السيدة عائشة قد مضت لقضاء حاجتها ، حتى جاوزت الجيش ، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها ، فإذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها ، فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لأن النساء كن ـ إذ ذاك ـ خفافا لم يغشهن اللحم . فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، وكانت عائشة جارية حديثة السن ، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها ، وليس بالمنزل داع ولا مجيب . فغلبتها عيناها فنامت وكان الذى يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل ، فأصبح

عند منزلها فعرفها ، لأنه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع [1] فاستيقظت باسترجاعه ، وسترت وجهها بجلبابها ، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة ، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش ، وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الإفك ، وقالوا ما قالوا فى عائشة وصفوان ، والذى تولى كبر الإفك عبدالله بن أبيّ ، ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ، وهى لا تشعر بشىء ، وكانت تعرف فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رقة إذا مرضت ، فلم يعطها نصيباً منها فى هذا المرض ، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله : كيف حالكم ؟ مما جعلها فى ريب عظيم ، فلما نقهت خرجت هى وأم (مسطح بن أثاثة) أحد أهل الإفك للتبرز خارج البيوت ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقالت عائشة : بئس ماقلت ، أتسبين رجلاً شهد بدرا فقالت : ياهنتاه أو لم تسمعى ما قالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر ، فازدادت مرضاً على مرضها ، ولما جاءها ـ صلى الله عليه وسلم ـ كعادته استأذنته أن تمرض فى بيت أبيها ، فأذن لها فسألت أمها عما يقول الناس فقالت : يابنية هونى عليك ، فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقالت عائشة : سبحان الله ، أو لقد تحدث الناس بهذا ، وبكت تلك الليلة حتى

---

(١) قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ، وفى خلال ذلك كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل ؟ فقال له أسامة بن زيد ـ لما يعلمه من براءة عائشة : أهلك أهلك[1] ، ولا نعلم عليهم إلا خيراً ، وقال علي بن أبى طالب : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . فدعا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بريرة جارية عائشة ، وقال لها : هل رأيت من شيء يريبك ؟ فقالت : والذى بعثك بالحق مارأيت عليها أمراً قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله . فقام ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يومه وصعد المنبر ، والمسلمون مجتمعون ، وقال : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ؟ والله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما يدخل على أهلى إلا معى . فقال سعد بن معاذ : أنا يارسول الله أعذرك منه ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . فقام سعد بن عبادة الخزرجى ، وقال : كذبت لعمرُ الله لا تقتله ولا تقدر على قتله . ولو كان من رهطك ما أحببت أنه يقتل . فقام أسيد بن حضير ، وقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزل من فوق المنبر ، وخفضهم حتى سكتوا .

---

(١) أى ألزم أهلك .

أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ، ولا تكتحل بنوم .

وبينما هى مع أبويها إذ دخل النبى - صلى الله عليه وسلم - فسلم ثم جلس ، فقال : أما بعد ياعائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف وتاب تاب الله عليه فتقلص دمع عائشة وقالت لأبويها : أجيبا رسول الله ..! فقالا : والله ما ندرى مانقول ؟ فقالت : إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمرو الله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، فو الله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ ﴾ (١) ، ثم تحولت واضطجعت على فراشها ، ولم يزاول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم مَّااكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

---

(١) يوسف - ١٨ .

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) فسرى عن رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة ، فقالت لها أمها : قومى فاشكرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . فقالت : لا ، والله لا أشكر إلا الله الذى برأنى .

وبعد ذلك أمر – صلى الله عليه وسلم – بأن يجلد من صرح بالإفك ثمانين جلدة ، وهى حد القاذف ، وكانوا ثلاثة : (حمنة بنت جحش) ، و(مسطح بن أثاثة) ، و(حسان بن ثابت) .

وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه فلما تكلم بالإفك قطع عنه النفقة ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُو

---

(١) النور ١١ – ٢١ .

الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) فقال أبو بكر : بل نحب ذلك يارسول الله . وأعاد النفقة على مسطح ، فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن فمتى رأوا بابا لها ولجوه فنعوذ بالله منهم .

(غزوة الخندق)

لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها : بل كان فى نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم إلى مكة ، وقابلوا رؤساء قريش ، وحرضوهم على حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنوهم المساعدة ، فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه ، ثم جاءوا إلى قبيلة (غطفان) وحرضوا رجالها كذلك ، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب ، فوجدوا منهم ارتياحاً :

فتجهزت (قريش) وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدرى وعددهم أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف بعير .

وتجهزت (غطفان) يرأسهم عيينة بن حصن الذى جازى

---

(١) النور ـ ٢٢ .

إحسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفرا فإنه كما قدمنا أقطعه أرضا يرعى فيها سوائمه حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس .

وتجهزت (بنو مرة) يرأسهم الحارث بن عوف المرسى وهم أربعمائة .

وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رُخَيْلَة .

وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة .

وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان .

ولما بلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبار هاته التجهيزات **استشار أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فيما يصنع : أيمكث بالمدينة ، أم** يخرج للقاء هذا الجيش الجرار ؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق ، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه ، فأمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين بعمله ، وشرعوا فى حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية ، وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق : لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل وعمل معهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

وأقام الجيش فى الجهة الشرقية مسنداً ظهره إلى (سلع) وهو جبل مطل على المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف وكان لواء المهاجرين مع (زيد بن حارثة) ولواء الأنصار مع (سعد بن عبادة .

أما قريش فنزلت بـ (مجمع الأسيال) ، وأما (غطفان) فنزلت جهة أحد ، وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التى لم تكن العرب تعرفها فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل ، ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق منهم : عكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن ود ، وآخرون . وقد برز على بن أبى طالب لعمرو بن ود فقتله ، وهرب إخوانه وهوى فى الخندق نوفل بن عبدالله فاندقت عنقه (ورمى) سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ بسهم قطع أكهله وهو شريان الذراع ، واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعد ، وجعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الخندق حراسا حتى لا يقتحمه المشركون بالليل ، وكان يحرس بنفسه ثلمة فيه مع شدة البرد ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبشر أصحابه بالنصر والظفر ، ويعدهم الخير ، أما المنافقون فقد أظهروا فى

هذه الشدة ماتكنهُ ضمائرهم حتى قالوا : ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [1] وانسحبوا قائلين (إن بيوتنا عورة) نخاف أن يغير عليها العدو ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [2] ، واشتدت الحال بالمسلمين ؛ فإن هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة ، والذى زاد الشدة عليهم مابلغهم من أن يهود بنى قريظة الذين يساكنونهم فى المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود .

وسبب ذلك أن (حيى بن أخطب) سيد بنى النضير المجلين توجه إلى كعب بن أسد القرظى سيد بن قريظة ، وكان له كالشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فحسن له نقض العهد ، ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين .

ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل (مسلمة بن أسلم) فى مائتين ، و(زيد بن حارثة) فى ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذرارى ، وأرسل (الزبير بن العوام) يستجلى له الخبر فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر ، ونالوا من رسول الله والمسلمين أمامه ، فرجع وأخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك ، وهنالك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً : لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وظنوا بالله الظنون ، وتكلم المنافقون بما بدا لهم فأراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرسل

---

(١) الأحزاب ـ ١٢ .

(٢) الأحزاب ـ ١٣ .

لعيينة بن حصن ، ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان فأبى الأنصار ذلك قائلين : إنهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من ثمرنا ونحن كفار أفبعد الإسلام يشاركوننا فيها .

وإذا أراد الله العناية بقوم هيأ لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون فانظر إلى هذه العناية من الله بالمتمسكين بدينه القويم :

جاء (نعيم بن مسعود الأشجعى) وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان فقال : يارسول الله إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون بإسلامى فمرنى بأمرك حتى أساعدك ، فقال : أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل ؟ ولكن خذل عنا ماستطعت فإن الحرب خدعة .

(الخدعة فى الحرب)

فخرج من عنده وتوجه إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين ، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم فقال : يابنى قريظة تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم ، وإنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى . قالوا : نعم ، فقال : لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم وأما أنتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم ، فأرى ألا تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان إنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن

تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك .

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال : أنتم تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم ، وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى . قالوا : نفعل . فقال لهم : إن بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه فقالوا له : أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذى كسرت (يريد بنى النضير) فرضى بذلك منهم ، وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفا .

ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ماأخبر به قريشاً فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غدا فأجابوا : إنا لا يمكننا أن نقاتل فى السبت (وكان إرساله لهم ليلة سبت) ، ولم يصبنا ماأصابنا إلا من التعدى فيه ، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم ؛ فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ابتهل إلى الله الذى لا ملجأ إلا إليه ودعاه بقوله : (اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم) ، وقد أجاب الله دعاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأرسل على الأعداء ريحاً باردة فى ليلة مظلمة فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ، ويهجموا عليهم فى الليلة المدلهمة فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح . ولما سمع ـ صلى الله

عليه وسلم ـ الضوضاء فى جيش العدو قال لأصحابه : لابد من حادث فمن منكم ينظر لنا خبر القوم فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثا ، وكان فيهم حذيفة بن اليمان فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تسمع صوتى منذ الليلة ولا تجيب ؟ فقال : يارسول الله البردُ شديد فقال : اذهب فى حاجة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، واكشف لنا خبر القوم فخاطر ـ رضى الله عنه ـ بنفسه فى خدمة نبيه حتى اطلع على جلية الخبر ، وأن الأعداء عازمون على الرحلة .

(هزيمة الأحزاب)

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم : ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو ، وقد حل عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل ، فقال له صفوان بن أمية : إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى ، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل ، وترك خالد بن الوليد فى جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم ، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى تحزب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين ، ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منة منه وفضلاً لساءت الحال .

وكان جلاء الأحزاب فى ذى القعدة وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله ـ فى سورة الأحزاب : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُم مِّن

فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (١) .

(غزوة بنى قريظة)

ولما رجع ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه وأراد أن يخلع لباس الحرب أمره الله باللحاق ببنى قريظة حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم فى شدة ، فقال لأصحابه : لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة ، فساروا مسرعين ، وتبعهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ راكباً حماره ، ولواؤه بيد على بن أبى طالب ، وخليفته على المدينة عبدالله ابن أم مكتوم ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف . وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر فى الطريق فصلاها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ، ولم يصلها الآخرون إلا فى بنى قريظة بعد مضى وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يعنف فريقا منهم .

---

(١) الأحزاب ٩ ـ ١٣ .

ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب فى قلوبهم وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة ، وهى الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ، ولكن أنى لهم ذلك ، وقد ثبت للمسلمين غدرُهُم ، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم ، وحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة فلما رأوا أن لا مناص من الحرب ، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فلم يقبل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير سلاح فلم يرض أيضاً ، بل قال : لابد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شرا . فقالوا له : أرسل لنا أبا لبابة نستشيره وكان أوسيا من حلفاء قريظة له بينهم أولاد وأموال فلما توجه إليهم استشاروه فى النزول على حكم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم انزلوا وأومأ بيده إلى حلقه يريد أن الحكم الذبح .

ويقول أبو لبابة : لم أبارح موقفى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ، فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلا من مقابلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد حتى يقضى الله فيه أمره .

ولما سأل عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُخْبِرَ بما فعل ، فقال : أما أنه لو جاءنى لاستغفرت له ، أما وقد فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه .

ثم إن بنى قريظة لما لم يروا بدا من النزول على حكم رسول الله فعلوا ، فأمر برجالهم فكتفوا فجاءه رجال من الأوس ،

وسألوه أن يعاملهم كما عامل بنى قينقاع ، حلفاء إخوانهم الخزرج فقال لهم : ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا : نعم . واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذى كان جريحا من السهم الذى أصيب به فى الخندق ، وكان مقيما بخيمة فى المسجد معدة لمعالجة الجرحى . فأرسل - عليه الصلاة والسلام - من يأتى به فحملوه على حماره ، والتف عليه جماعة من الأوس ، يقولون له : أحسن فى مواليك ، ألا ترى ما فعل ابن أبى فى مواليه ؟ فقال - رضى الله عنه : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

ولما أقبل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، وهم جلوس ، قال - عليه الصلاة والسلام : قوموا إلى سيدكم فأنزلوه ففعلوا . وقالوا له : إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . وقال له الرسول : احكم فيهم ياسعد . فالتفت سعد للناحية التى ليس فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟ فقالوا : نعم . فالتفت إلى الجهة التى فيها الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقال : وعلى من هنا كذلك ؟ وهو غاض طرفه إجلالا ، فقالوا : نعم . قال : فإنى أحكم أن تقتل الرجال وتسبى النساء والذرية . فقال - عليه الصلاة والسلام : (لقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد) لأن هذا جزاء الخائن الغادر ، ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم .

غنائم بني قريظة

وجمعت غنائمهم فكانت ألفاً وخمسمائة سيف ، وثلثمائة درع ، وألفى رمح وخمسمائة ترس وجحفة ، ووجد أثاثا كثيرا

وآنية وأجمالا نواضح ، وشياها فخمس ذلك كله مع النخل والسبى :

للراجل ثلث الفارس وأعطى النساء اللاتى كن يمرضن الجرحى ، ووجد فى الغنيمة جرار خمر فأريقت .

وفاة سعد ـ رضى الله عنه :

وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضى الله عنه وأرضاه ، كان فى الأنصار كأبى بكر فى المهاجرين وقد كان له العزم الثابت فى جميع المشاهد التى تقدمت الخندق ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحبه كثيرا ، وبشره بالجنة على عظيم أعماله .

أبولبابة ـ رضى الله عنه :

وعقب رجوع المسلمين إلى المدينة تاب الله على أبى لبابة بقوله : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] وقد عاهد الله أن يهجر ديار قريظة التى حصلت له فيها هذه الزلة .

وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ولم تبق إلا بقية من

---

(١) التوبة ـ ١٠٢ .

كبارهم بخيبر مع أهلها وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب ، وسيأتى للقارىء قريبا اليوم الذى يعاقبون فيه .

(زواج زينب بنت جحش)

وفى هذا العام تزوج - عليه الصلاة والسلام - زينب بنت جحش ، وأمها أميمة عمته بعد أن طلقها مولاه (زيد بن حارثة) وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانها فى الشرف العظيم ، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ، ويعتقدون أن لا كفء من سواهم لبناتهم ، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف ، فلما نزل قوله - تعالى - فى سورة الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾[1] لم يروا بداً من القبول ، فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمره باحتمالها والصبر عليها ، إلى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها ، وكرر ذلك . ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسما لهذا الشقاق من جهة وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله -

---

(١) الأحزاب - ٣٦ .

صلى الله عليه وسلم - خشى من لوم اليهود والعرب له فى زواجه بزوج ابنه ، فقال لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله . وأخفى في نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المُتَبَنِّى بقوله فى سورة الأحزاب : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(1) ثم إن الله حرم التبنى - على المسلمين لما فيه من الإضرار وأنزل فيه فى سورة الأحزاب : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(2) ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد بن محمد) وأبدل بذلك أن ذكر اسمه فى قرآن يتلى على مر الدهور والأعوام .

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالا لا تجوز إلا على من ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول ، فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة ، لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه ، فقال : سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعزمه فنهاه عن ذلك إلخ . وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وأسلمت قديما ورسول الله بمكة فكيف لم يرها وقد

---

(١) الاحزاب - ٣٧ .

(٢) الاحزاب - ٤٠ .

مضى على إسلامها نحو عشر سنوات وهى بنت عمته إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو الذى زوجها زيداً ، فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك . ومن منا يتصور أن السيد الأكرم ، يقول لقومه : إنه مرسل من ربه ، ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله فى سورة الحجر المكية : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾[1] وفى سورة طه المكية أيضاً : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[2] ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجه مصادفة ثم يشتهى زواجها ، إن هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا ، ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا ، وأبعدهم عن الدنايا وأشدهم ذكاء وفراسة حتى مدحه الله بقوله فى سورة (ن) : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [3] لاشك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق وضعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل فلم تبق شبهة فى أن الحقيقة ما نقلناه لك أولا وهو الذى يستفاد من القرآن الشريف .

قال تعالى - فى سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ

---

(١) الحجر - ٨٨ .
(٢) طه - ١٣١ .
(٣) ن - ٤ .

اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1] والذى أبداه الله هو زواجه بها ولم يبد غير ذلك .

وهذا القرآن أعظم شاهد .

(الحجاب)

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبه ويذكره كثيراً ، ويود أن ينزل فيه قرآن ، وكان يقول : لو أطاع فيكن مارأتكن عين ، فنزل فى سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[2] فقال بعضهم : أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد لأتزوجن عائشة ، فنزل بعد الآية المتقدمة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾[3]

---

(١) الاحزاب - ٣٧ .

(٢) الاحزاب - ٥٣ .

(٣) الاحزاب - ٥٣ .

أما غير أزواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المؤمنات فأمرن بغض الأبصار ، وحفظ الفروج كما أمر بذلك الرجال ، وأمرن أن لا يبدين زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها : كالخاتم فى الإصبع والخضاب فى اليد والكحل فى العين . أما ما خفى منها فلا يحل إبداؤه كالسوار للذراع ، والدملج للعضد ، والخلخال للرجل ، والقلادة للعنق والإكليل للرأس ، والوشاح للصدر ، والقرط للأذن ، والمراد بالزينة الظاهرة والخفية مواضعها .

وأمرن أيضا بأن يضربن بخمرهن على الجيوب[1] كيلا تبقى صدورهن مكشوفة ؛ فإن النساء إذ ذاك كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وماحواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن .

ونهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهن ذوات خلخال .

وإذا كان النهى عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى ، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ . قال ـ تعالى ـ فى سورة النور : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ

---

(١) الجيب : فتحة العنق .

وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١) .

(النساء أول الإسلام)

وكان النساء فى أول الإسلام - كما كن فى الجاهلية - متبذلات تبرز المرأة فى درع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة ، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل إلى مقاضى حوائجهن فى النخيل والغيطان ، وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة ، يقولون : حسبناها أمة ، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليغطى الوجه والأعطاف ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع - قال - تعالى - فى سورة الأحزاب : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢) .

أما حجب المرأة عمن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يفعل فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا فى عهد السلف الصالح - رضوان الله عليهم - فإن الشارع الحكيم سن ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين فى أمر أجمع عليه أئمة الدين ، قال حجة

---

(١) النور - ٣١ .

(٢) الأحزاب - ٥٩ .

الإسلام الغزالى فى الإحياء : « وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر ، فقال : إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما أى يؤلف بينهما من وقوع الأدمة على الأدمة وهى الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة وإنما ذكر ذلك للمبالغة فى الائتلاف . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن فى أعين الأنصار شيئا فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن . قيل كان فى أعينهن عمش وقيل صغر وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور وقال الأعمش : (كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم) ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التى تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حسنا عند عامة المسلمين فى العصور الأولى حجب المرأة مطلقا حسما للمفاسد ودرءاً للفتنة .

(فرض الحج)

وفى هذا العام على ما عليه الأكثرون فرض الله على الأمة الإسلامية حج البيت من استطاع إليه سبيلا ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار فيتجهوا إلى الله ويبتهلوا إليه أن يؤيدهم بنصره ، ويعينهم على اتباع دينه القويم ، وفى ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى .

ـ السنة السادسة ـ

(سرية)

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة أرسل عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ فى ثلاثين راكبا لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضرية(١) فسار إليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة ، وهرب باقيهم فاستاقت السرية النعم والشياه وعادوا راجعين إلى المدينة ، وقد التقوا وهم عائدون بـ (ثمامة بن أثال الحنفى) من عظماء بنى حنيفة فأسروه ، وهم لا يعرفونه فلما أتوا به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق ، فإنه أطلق إساره بعد ثلاث أبى فيها الانقياد للإسلام بعد أن عُرض عليه ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم رأى من العبث أن يتبع هواه ، ويترك دينا عماده المحامد ، فرجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله :

يامحمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىَّ ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىَّ من دينك ، فقد أصبح أحب الدين كله إلىَّ ، والله ماكان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك

---

(١) موضع على سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة .

فقد أصبح أحبَّ البلاد إلىَّ) فسر ـ عليه الصلاة والسلام ـ كثيراً بإسلامه لأن من ورائه قوماً يطيعونه .

ولما رجع ثمامة إلى بلاده مر بمكة معتمراً ، وأظهر فيها إسلامه فأرادت قريش إيذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التى منها ثمامة فتركوه ، ومع ذلك فقد حلف هو أن لا يرسل إليهم من اليمامة حبوبا حتى يؤمنوا فجهدوا جداً ولم يروا بداً من الاستغاثة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعاملهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما جبل عليه من الشفقة والمرحمة وأرسل لثمامة أن يعيد عليهم ماكان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل .

وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة فى الإسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتد أكثر أهل بلاده فكان ينهى قومه عن اتباع مسيلمَة(١) ويقول لهم : إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه . فثبت معه كثير من قومه ـ رضى الله عنه .

(غزوة بنى لحيان)

(بنو لحيان) هم الذين قتلوا « عاصم بن ثابت » وإخوانه ـ رضوان الله عليهم ـ ولم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حزينا عليهم متشوفا للقصاص من عدوهم

---

(١) بكسر اللام ، قال بعضهم ومن فتح اللام فهو أكذب منه .

حتى ربيع الأول من هذه السنة ، فأمر أصحابه بالتجهز ، ولم يظهر لهم مقصده - كما هى عادته عليه الصلاة والسلام - فى غالب الغزوات لتعمى الأخبار عن الأعداء ، وولى على المدينة (ابن أم مكتوم) - رضى الله عنه - وسار فى مائتى راكب معهم عشرون فرسا ولم يزل سائراً حتى مقتل أصحاب الرجيع فترحم عليهم ، ودعا لهم ، ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا فى الجبال فأقام - عليه الصلاة والسلام - بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً ، ثم أرسل بعضا من أصحابه ليأتوا عسفان[1] حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب فذهبوا إلى كراع الغميم[2] ثم رجع عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة وهو يقول : (آيبون تائبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء[3] السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال) .

(غزوة الغابة)

كان للنبى - عليه الصلاة والسلام - عشرون لقحة[4] ترعى بالغابة[5] فأغار عليها عيينة بن حصن فى أربعين راكبا ، واستلبها من راعيها فجاءت الأخبار رسول الله - عليه

---

(١) موضع قرب مكة .

(٢) جبل جنوب عسفان بثمانية أميال .

(٣) وعثاء السفر : مشقة السفر .

(٤) ناقة ولدت عن قريب جداً .

(٥) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان .

الصلاة والسلام ـ والذى بلغه هو (سلمة بن الأكوع) ـ رضى الله عنه ـ أحد رماة الأنصار ، وكان عداء ، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخرج فى أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون ، فخرج يشتد فى أثرهم حتى لحقهم ، وجعل يرميهم بالنبل ، فإذا وجهت الخيل نحوه رجع هارباً فلا يلحق ، فإذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيراً مما بأيديهم من الرماح والأبراد[١] ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش ، فإن الرسول دعا أصحابه فأجابوه ، وأول من انتهى إليه المقداد ابن الأسود فقال له اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك وأعطاه اللواء ، فخرج وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان واستنقذ المسلمون غالب اللقاح وهرب أوائل القوم بالبقية وطلب سلمة ابن الأكوع من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرسله مع جماعة فى أثر القوم ليأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (ملكت فأسجح[٢]) ثم رجع بعد خمس ليال .

(سرية)

كان (بنو أسد) الذين مر ذكرهم كثيراً ما يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) جمع برد : رداء .

(٢) الإسجاح حسن العفو .

عكَّاشة[1] بن محصن فى أربعين راكبا ليغير عليهم ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا وهناك وجدوا رجلاً نائماً فأمنوه ليدلهم على نعم القوم فدلهم عليها فاستاقوها وكانت مائة بعير ، ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيدا .

(سرية)

وفى ربيع الأول بلغه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن من بـ(ذى القصة)[2] يريدون الإغارة على نعم المسلمين التى ترعى بـ (الهيفاء)[3] فأرسل لهم (محمد بن مسلمة) ـ رضى الله عنه ـ فى عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلا ، وقد كمن لهم المشركون حينما علموا بهم ، فنام المسلمون ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم فتواثبوا على أسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير (محمد بن مسلمة) تركوه لظنهم أنه قتل فعاد إلى المدينة وأخبر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح فى ربيع الآخِر ليقتص من الأعداء فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نعمهم ورجع .

(سرية)

عاكس بنو سليم الذين كانوا من المتحزبين فى (غزوة الخندق) المسلمين فى سيرهم فأرسل ـ عليه الصلاة

---

(١) عكاشة كرمانة ويخفف .
(٢) موضع على أربعة وعشرين ميلا من المدينة فى طريق الربذة .
(٣) موضع قرب المدينة .

والسلام ـ (زيد بن حارثة) فى ربيع الآخر ليغير عليهم فى (الجموم)[1] فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا ، ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بنى سليم ، فأصابوا بها نعما وشاء ، ووجدوا رجالاً أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك إلى المدينة فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها .

(سرية)

بلغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة ، فأرسل لها (زيد بن حارثة) ـ رضى الله عنه ـ فى مائة وسبعين راكبا ليعترضها فأخذها ومافيها ، وأسر من معها من الرجال ، وفيهم (أبو العاص بن الربيع) زوج (زينب) ـ رضى الله عنها ـ بنت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة ، فاستجار بزوجه زينب فأجارته ونادت بذلك فى مجمع قريش ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت) وهذا أبلغ ماقيل فى المساواة بين أفراد المسلمين ، ورد عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً فذهب إلى مكة فأدى لكل ذى حق حقه ، ورجع إلى المدينة مسلماً فرد عليه رسول الله زوجه[2] .

---

(١) ناحية من بطن نخل .

(٢) بنكاحه الأول ، ولم يجدد لهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم عقدا جديدا .

(سرية)

وفى جمادى الآخرة أرسل - عليه الصلاة والسلام - (زيد ابن حارثة) - رضى الله عنه - فى خمسة عشر رجلاً للإغارة على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب (محمد بن مسلمة) - رضى الله عنه - وهم مقيمون بالطرف[1] فتوجهت السرية لذلك ، ولما رآهم الأعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم فاستاقها المسلمون ورجعوا إلى المدينة بعد أربع ليال .

(سرية)

وفى رجب أرسل - عليه الصلاة والسلام - (زيد بن حارثة) ليغير على بنى فزارة ، لأنهم تعرضوا لزيد ، وهو راجع بتجارة من الشام فسلبوه ما معه ، وكادوا يقتلونه ، فلما جاء المدينة وأخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الخبر أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين فى وادى القرى[2] فساروا حتى دهموا العدو ، وأحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعا كثيراً وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة فاستوهبها - عليه الصلاة والسلام - ممن أسرها ، وفدى بها أسيراً كان بمكة .

---

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلا من المدينة فى طريق العراق .

(٢) موضع شمالى المدينة .

(سرية)

وفى شعبان أرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ (عبد الرحمن بن عوف) مع سبعمائة من الصحابة لغزو بنى كلب فى دومة الجندل(١) وقد وصاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل السفر بقوله : (اغزوا جميعاً فى سبيل الله فقاتلن من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم) ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو فدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمر والنصرانى ، وأسلم معه جمع من قومه وبقى آخرون راضين بإعطاء الجزية ، فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم كما أمره بذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الود بين الأمراء بحيث يهم كلا ما يهم الآخر فنعما هى سياسة السلم والمحبة .

(سرية)

وفى شعبان أرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ (على بن أبى طالب) فى مائة لغزو بنى سعد بن بكر بـ (فدك)(٢) لأنه

---

(١) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليال وبين المدينة خمس عشرة ليلة .

(٢) قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر .

بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر فسارت السرية ، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو أرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها فطلبوا منه أن يدلهم على القوم وهو آمن فدلهم على موضعهم فاستاق منه المسلمون نعم القوم وهرب الرعاة ، فحذروا قومهم فداخلهم الرعب وتفرقوا فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاة ورد الله كيد المشركين فلم يمدوا اليهود بشىء .

(قتل أبى رافع)

وكان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين هو سيدهم أبو رافع سلام بن أبى الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز لما كان له من المهارة فى التجارة ، وكان ذا ثروة طائلة يقلب بها قلوب اليهود كما يريد فانتدب له ـ عليه الصلاة والسلام ـ من يقتله . فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم (عبدالله بن عتيك) ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فإن من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا تعمل الأوس عملا إلا اجتهد الخزرج فى مثله فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصاهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة ، فساروا حتى أتوا (خيبر) فقال عبدالله لأصحابه : مكانكم فإنى منطلق للبواب ومتلطف له لعلى أدخل . فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوب كأنه

يقضي حاجته ، وقد دخل الناس فهتف به البواب : أدخل ياعبدالله إن كنت تريد الدخول ؛ فإني أريد أن أغلق الباب فدخل وكمن حتى نام البواب فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل له الهرب ثم توجه إلى بيت أبى رافع ، وصار يفتح الأبواب التى توصل إليه وكلما فتح بابا أغلقه من داخل حتى انتهى إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عِياله ، فلم يمكنه تمييزه ،

فنادى : يا أبا رافع . قال : من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً ، وعند ذلك قالت امرأته : هذا صوت ابن أبى عتيك . فقال لها : ثكلتك أمك وأين ابن أبى عتيك الآن ؟ فعاد عبدالله للنداء مغيراً صوته قائلا : ما هذا الصوت الذى نسمعه يا أبا رافع ؟ قال : لأمك الويل إن رجلا فى البيت ضربنى بالسيف ، فعمد إليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً

فتوارى ، ثم جاءه كالمغيث وغير صوته فوجده مستلقيا على ظهره فوضع السيف فى بطنه ، وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ، ثم خرج من البيت ، وكان نظره ضعيفا فوقع من فوق

السلم فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ، ثم انطلق إلى أصحابه وقال : النجاة ، قُتل والله أبو رافع فانتهوا إلى الرسول فحدثوه ثم قال لعبدالله : ابسط رجلك فمسحها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكأنه لم يشتكها قط ، وعادت

أحسن ما كانت . فانظر ـ رعاك الله ـ إلى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب مادامت فى إرضاء رسول الله ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرضى الله عنهم وأرضاهم .

(سرية)

(ولما) قتل كعب ولى اليهود مكانه أسير بن رزام فأرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ من يستعلم له خبره فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه : سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحد قبلى ، أسير إلى غطفان فأجمعهم لحربه ، وسعى فى ذلك فأرسل له ـ عليه الصلاة والسلام ـ (عبدالله بن رواحة الخزرجى) فى ثلاثين من الأنصار لاستمالته ، فخرجوا حتى قدموا خيبر ، وقالوا لأسير : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال : نعم ، ولى مثل ذلك ؟ فأجابوه . ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويترك ما عزم عليه من الحرب فيوليه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على خيبر فيعيش أهلها بسلام ، فأجاب إلى ذلك ، وخرج فى ثلاثين يهوديا كل يهودى رديف لمسلم . وبينما هم فى الطريق ندم أسير على مجيئه ، وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن أمنوه فأهوى بيده إلى سيف عبدالله بن رواحة ، فقال له : أغدراً ياعدو الله ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامة فخذه ، ولم يلبث أن هلك ، فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم . وهذه عاقبة الغدر .

(قصة عكل وعرينة)

قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شوال جماعة من عكل وعرينة فأظهروا الإسلام ، وبايعوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا سقاما مصفرة ألوانهم عظيمة

بطونهم ، فلم يوافقهم هواء المدينة فأمر لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذود من الابل معها راع وأمرهم باللحاق بها فى مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ، ففعلوا ولما تم شفاؤهم جازوا الإحسان كفراً ، فقتلوا الراعي ومثلوا به ، واستاقوا الإبل ، فلما بلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل وراءهم (كرز بن جابر الفهرى) فى عشرين فارسا فلحقوا بهم ، وقبضوا على جميعهم ، ولما جىء بهم إلى المدينة أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن يمثل بهم كما مثلوا بالراعى فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت[1] أعينهم ، وألقوا بالحرة حتى ماتوا . فهكذا يكون جزاء الخائن الذى لا ينتظر منه صلاح ، وعمل هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم العشيرة وقد نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك عن المثلة .

(سرية)

جلس أبو سفيان بن حرب يوما فى نادى قومه فقال : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدراً ، فإنه يمشى بالأسواق لنستريح منه فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد فأعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك : فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صبح سادسة من خروجه ، فسأل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدل عليه ، وهو بمسجد بنى (عبد الأشهل) فلما رآه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : إن هذا الرجل ليريد

---

(١) قلعت .

غدراً وإن الله مانعى منه . فذهب لينحنى على الرسول فجذبه أسيد بن حضير من إزاره . وهنالك سقط الخنجر فندم الرجل على فعلته . ثم سأله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه فخلى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبيله . فقال الرجل :

« والله يامحمد ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى وضعفت نفسى ، ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد فعرفت أنك ممنوع وأنك على حق ، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان » . ثم أسلم .

وعند ذلك أرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ (عمرو بن أمية الضمرى) ـ رضى الله عنه ـ وكان رجلا جريئا فاتكا فى الجاهلية . وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له فعرف عمراً أحد رجال مكة . فقال : هذا عمرو بن أمية ، ما جاء إلا بشر فلما رآهم علموا به لم يجد مناصا من الهرب فاصطحب معه رفيقه ، ورجعا إلى المدينة ، وكأن الله ـ سبحانه ـ أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح مكة للمسلمين ، ويعتنق الدين الحنيفى القويم .

(غزوة الحديبية)

رأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه حذراً من أن تردهم قريش عن

عمرتهم ، ولكن هؤلاء الأعراب أبطأوا عليه ، لأنهم ظنوا أن لا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وتخلصوا بأن قالوا : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، فخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدتهم ألفا وخمسمائة ، وولى على المدينة (ابن أم مكتوم) وأخرج معه زوجه (أم سلمة) ـ رضى الله عنها ـ وأخرج الهدى ليعلم الناس أنه لم يأت محاربا ، ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف فى القرب ؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ثم سار الجيش حتى وصل عسفان[1] فجاءه عينه يخبره أن قريشا أجمعت رأيها أن يصدوا المسلمين عن مكة ، وأن لا يدخلوها عليهم عنوة أبداً . وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم . فقال ـ عليه الصلاة والسلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يارسول الله ، فسار بهم فى طريق وعرة ثم خرج بهم إلى مستو سهل يملك مكة من أسفلها ، فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع إلى قريش وأخبرهم الخبر .

ولما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بثنية المرار[2] بركت ناقته فزجروها فلم تقم ، فقالوا : خلأت[3] القصواء ..! فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

---

(١) موضع على مرحلتين من مكة .

(٢) مهبط الحديبية .

(٣) الناقة .

« ما خلأت وماذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش لخصلة فيها تعظم حرمات الله إلا أجبتهم إليها » . مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم فى مثل هذا الوقت لظفروا بهم ، ولكن كف الله أيدى المسلمين عن قريش ، وكفَّ أيدى قريش عن المسلمين كيلا تنتهك حرمات البيت الذى أراد الله أن يكون حرما آمناً يوطد المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوتهم فيه ، ثم أمرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنزول أقصى الحديبية[1] وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعى رسولا من قريش يسأل عن سبب مجىء المسلمين فأخبره ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمقصده ، فلما رجع بديل إلى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا به ، لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كانت كذلك لأجداده ، وقالوا : أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبدا ومنا عين تطرف . ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الأحابيش وهم حلفاء قريش ، فلما رآه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال هذا من قوم يعظمون الهدى ابعثوه فى وجهه حتى يراه ففعلوا واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك حليس رجع ، وقال : سبحان الله .. ! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا ، أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ؟ هلكت قريش . ورب البيت ، إن القوم أتوا معتمرين .

---

(١) بئر قرب مكة سميت الارض باسمها .

فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له : اجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك بالمكايد ، ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف فتوجه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : يا محمد قد جمعت أوباش الناس ، ثم جئت إلى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم ، إنها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . فنال منه أبو بكر ، وقال : نحن ننكشف عنه ؟ ويحك ، وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان (المغيرة بن شعبة) ـ رضى الله عنه ـ يقرع يده إذا أراد ذلك . ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه : لا يتوضأ وضوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر إليه ، فقال : والله يامعشر قريش جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى عظمته ، فما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبداً ، فانظروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح مع أنى أخاف أن لا تنصروا عليه .. ! فقالت قريش : لا تتكلم بهذا ، ولكن نرده عامنا ويرجع إلى قابل ، ثم إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختار (عثمان بن عفان) ـ رضى الله عنه ـ رسولا من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مقصده ، فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول فى زيارة أقاربهم وأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ عثمان أن يأتى المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح ، وإن الله مظهر دينه فدخل عثمان مكة

فى جوار أبان[1] بن سعيد الأموى ، فبلغ ما حمل فقالوا : إن محمدا لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع ، ثم إنهم حبسوه فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينما سمع ذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب .

(بيعة الرضوان)

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك[2] (سميت بعد بشجرة الرضوان) على الموت فشاع أمر هذه البيعة فى قريش فداخلهم منها رعب عظيم ، وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلا عليهم مكرز[3] بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين علّهم يصيبون منهم غرة فأسرهم حارس الجيش (محمد بن مسلمة) ـ رضى الله عنه ـ وهرب رئيسهم ، ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدأوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلا وقتل من المسلمين واحد .

(صلح الحديبية)

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة فى الصلح ، فلما جاء قال : يا محمد ، إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا بل شىء قام به السفهاء منا ؛ فابعث إلينا بمن أسرت . فقال : حتى ترسلوا من عندكم ، وعندئذ أرسلوا

(١) كسحاب مصروفة .

(٢) أمر عمر بقطعها زمن خلافته لما رأى تبرك الناس بها فليتامل .

(٣) كمنبر .

عثمان والعشرة الذين معه ، ثم عرض سهيل الشروط التى تريدها قريش وهى :

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش اربع سنوات .

٢ ـ من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده .

٣ ـ أن يرجع النبى [صلى الله عليه وسلم] من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتى العام المقبل ؛ فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف فى القراب والقوس .

٤ ـ من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه . فقبل ـ عليه الصلاة والسلام ـ كل هذه الشروط .

أما المسلمون فداخلهم منها أمر عظيم ، وقالوا سبحان الله كيف نرد إليهم من جاءنا مسلما ، ولا يردون من جاءهم مرتداً .. ! فقال ـ عليه الصلاة والسلام : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجاً .

أما الأمر الثالث ـ وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت ـ فكان أشد تأثيرا فى قلوبهم ؛ لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرهم أنه رأى فى منامه أنهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر أبابكر فى ذلك فقال ـ رضى الله عنه : وهل ذكر أنه فى هذا العام ؟ .

ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين ، وكان الكاتب علي بن أبى طالب فأملاه ـ عليه الصلاة والسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم

فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم . فأمره الرسول بذلك ، ثم قال : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك ، اكتب محمد بن عبدالله . فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ علياً بمحو ذلك ، وكتابة محمد بن عبدالله ، فامتنع ، فمحاها النبي بيده . وكتبت نسختان : نسخة لقريش ونسخة للمسلمين .

ابو جندل

وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل فى قيوده ، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة ، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه فقال ـ عليه الصلاة والسلام : اصبر واحتسب ؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بين القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا فلا نغدر بهم .

هذا وقد دخلت قبيلة خزاعة فى عهد رسول الله .

ودخل بنو بكر فى عهد قريش .

ولما انتهى الأمر أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أصحابه أن يحلقوا رءوسهم وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم ، فاحتمل المسلمون من ذلك هما عظيما حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال ؛ فدخل ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أم المؤمنين (أم سلمة) وقال لها : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا ؛ فقالت : يارسول الله ، اعذرهم فقد حملت نفسك أمرا عظيما

فى الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح ، فهم لذلك مكروبون ، ولكن اخرج يارسول الله وابدأهم بما تريد ؛ فإذا رأوك فعلت تبعوك ؛ فتقدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى هديه فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه ، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدى فنحروه ، وحلقوا ، ثم رجع المسلمون إلى المدينة ، وقد أمن كل فريق الآخر .

ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط :

ولما قر قرارهم جاءتهم ـ مهاجرة ـ (أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط) أخت عثمان لأمه ـ رضى الله عنهما ـ فطلبها المشركون فقالت : يارسول الله ، إنى امرأة ، وإن أرجعت إليهم فتنونى فى دينى ، فأنزل الله فى سورة الممتحنة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلا حبا لله ولرسوله . ومتى حلفت لا ترد ؛ بل يعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ويجوز للمسلم تزوجها .

---

(١) الممتحنة ـ ١٠ .

وفى الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة بل ترد إلى أهليها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها .

ابو بصير عتبة بن اسيد الثقفى وعصبته :

وقد تمكن أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفى ـ رضى الله عنه ـ من الفرار إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالرجوع معهما . فقال : يارسول الله ، اتردنى إلى الكفار يفتنونى فى دينى بعد أن خلصنى الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجا فلم يجد بداً من اتباعه ، فرجع مع صاحبيه ولما قارب ذا الحليفة عدا على احدهما فقتله وهرب منه الآخر . فرجع إلى المدينة ، وقال : يارسول الله وفت ذمتك أما أنا فنجوت فقال له : اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة ، فذهب إلى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش ؛ فأقام به واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، وسار إليه أبو جندل بن سهيل واجتمع إليه جمع من الأعراب ، وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الأمداد ، فأرسل رجال قريش لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستغيثون به فى إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق فى إمساك من جاءه مسلما ، فقبل منهم ذلك . وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التى لم يتمكنوا من تحملها فى الحديبية حينما أمرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ برد أبى جندل ـ رضى الله عنه ـ وعلموا أن رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفضل واحسن من رايهم حيث كان فيه أمن

تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين ؛ فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر - رضى الله عنه : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه . والعباد يعجلون ، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وفى رجوعه - عليه الصلاة والسلام - من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح ، وقال سبحانه فى أولها : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

وفى تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمنا لك عن الصديق .

(مكاتبة الملوك)

بعد رجوع المسلمين من الحديبية - فى أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش - كاتب - عليه الصلاة والسلام - ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، واتخذ إذ ذاك خاتما من فضة يختم به خطاباته ، وكان نقشه : (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبى - رضى الله عنه - بكتاب إلى قيصر ملك الروم ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم (بصرى)[1] ليوصله إلى الملك .

(كتاب قيصر)

وكان فى الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ؛ فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك

---

(١) بصرى عاصمة مقاطعة حوران بسوريا .

الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] (ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

(حديث أبى سفيان)

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال : انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة ، فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا ؛ لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره ، فقال قيصر : ادن منى ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله :

كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

قال : هو فينا ذو نسب .

قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟

قال : لا ..

قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

---

(١) الفلاحين .

قال : لا ..

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قال : لا ..

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قال : بل ضعفاؤهم .

قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟

قال : بل يزيدون .

قال : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

قال : لا ..

قال : هل يغدر إذا عاهد ؟

قال : لا . ونحن الآن منه فى ذمة ، لا ندرى ما هو فاعل فيها .

قال : فهل قاتلتموه ؟

قال : نعم .

قال : فكيف حربكم وحربه ؟

قال : الحرب بيننا وبينه سجال : (مرة لنا ومرة علينا) .

قال : فبم يأمركم ؟

قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة .

فقال الملك : إنى سألتك عن نسبه ، فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فزعمت أن

لا ، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فقلت : لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل .

وسألتك : هل يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت : بل يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم .

وسألتك : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ فقلت لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل قاتلتموه ؟ فقلت : نعم ، وإن الحرب بينكم وبينه سجال ، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

وسألتك : بماذا يأمر ؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ؛ فعلمت أنه نبى ، وقد علمت أنه مبعوث ، ولم أظن أنه فيكم ، وإن كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك .

قال أبو سفيان : فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم ، فلا أدرى ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا . فلما خرج أبو سفيان

مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر .

ولما صار قيصر إلى (حمص) أذن لعظماء الروم فى دسكرة[1] له ثم أمر بأبوابها فأغلقت ، ثم قال : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا[2] حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم ، قال : ردوهم علىّ ، فقال لهم : إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم ، فسكتوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الإسلام ، فذهب بإثمه ، وإثم رعيته كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكنه رد دحية ردا جميلا .

(كتاب أمير بصرى)

وارسل ـ عليه الصلاة السلام ـ (الحارث بن عمير الأزدى) ـ رضى الله عنه ـ بكتاب إلى أمير بصرى ، فلما بلغ (مؤتة) وهى قرية من عمل (البلقاء) بالشام تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فقال له : أين تريد ؟ قال : الشام .

قال : لعلك من رسل محمد ؟

قال : نعم ، فأمر به فضربت عنقه ولم يقتل لرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسول غيره وقد وجد لذلك وجداً شديداً .

---

(١) مكان .

(٢) هاجوا.

(كتاب الحارث بن أبى شمر)

ووجه - عليه الصلاة والسلام - (شجاع بن وهب) - رضى الله عنه - إلى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبى شمر وكان يقيم بغوطتها ، وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله وصدق . وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك) فلما قرأ الكتاب رمى به ، وقال : من ينزع ملكي منى . واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين ، وقال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى ، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه فى ذلك وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيىء بإيليا ما يلزم لزيارته ، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

(كتاب المقوقس)

ووجه - عليه الصلاة والسلام - (حاطب بن أبى بلتعة) - رضى الله عنه - بكتاب إلى (المقوقس) أمير مصر من جهة (قيصر) وكان فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ؛ فإنى أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم

يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة .. الآية ، فأوصله له حاطب بالاسكندرية ، فلما قرأه قال : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله ، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه ؟ قال : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكذاب ووجدت معه آلة النبوة إخراج الغائب المستور والإخبار بالنجوى وسأنظر . ثم كتب رد الجواب يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » .

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك .

أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب وأهديت إليك بغلة تركبها والسلام» .

وإحدى الجاريتين : مارية التى تسرى بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجاء منها بولده إبراهيم .

والأخرى : أعطاها لحسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ .

ولم يسلم المقوقس .

كتاب النجاشي

ووجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ (عمرو بن أمية الضمرى) ـ رضى الله عنه ـ بكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة سلام .

أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى ، وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله ـ عز وجل ـ وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى» .

ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام ، وقال لعمرو : إنى أعلم ـ والله ـ أن عيسى بشر به ، ولكن أعوانى بالحبشة قليل فانظرنى [1] حتى أكثر الأعوان وألين القلوب» .

وقد عرض عمرو على من بقى من مهاجرى الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة ، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذى كان أسلم وهاجر بها ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر فتزوج عليه الصلاة والسلام أم حبيبة وهى بالحبشة والذى زوجها له النجاشي بتوكيل منه ـ عليه الصلاة والسلام .

---

(١) اى امهلنى ونظيرها وانظرنى إلى يوم يبعثون .

كتاب كسرى

ووجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ (عبدالله بن حذافة السهمى) ـ رضى الله عنه ـ بكتاب إلى كسرى ملك الفرس وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحدَه[1] لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله

أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس» .

فلما وصله الكتاب مزقه استكبارا ولما بلغه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك قال : (مزق الله ملكه كل ممزق) وقد فعل ، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطا ، وقد بدأ هذا الشقى بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتى به إليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ، ثم أرسل لعامل اليمن ينهاه عما أمره به أبوه .

كتاب المنذر بن ساوى

ووجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ (العلاء بن الحضرمى) ـ رضى الله عنه ـ بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه :

---

(١) بالفتح حال .

بسم الله الرحمن الرحيم

سلم أنت ؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فإن عليه الجزية» فأسلم وكتب فى رد الجواب :

«أما بعد يارسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلى فى ذلك أمرك» .

فكتب إليه ـ عليه الصلاة والسلام :

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى وسلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إلا إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، فإنى أذكرك الله ـ عز وجل ـ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وأنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وأنى شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وأنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية) .

كتاب ملكى عمان

ووجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ (عمرو بن العاص) بكتاب إلى جيفر وعبد الله ابنى الجلندى ملكي عمان وفيه

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد الله ابنى الجلندى سلام على من اتبع الهدى أما بعد

فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وأنكما أن اقررتما بالإسلام وليتكما ، وأن أبيتما فإن ملككما زائل ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما) .

فلما دخل بناديهما عمرو سأله عبد الله بن الجلندى عما يأمر به الرسول ـ ﷺ ـ وينهى عنه ؟ فقال : يأمر بطاعة الله ـ عز وجل ـ وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ولو كان أخي يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعا قال عمرو :

إن أسلم أخوك ملكه رسول الله ـ ﷺ ـ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم فقال عبد الله إن هذا لخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات فى الأموال ، ولما ذكر المواشى قال : ياعمرو يؤخذ

من سوائم مواشينا التى ترغى فى الشجر وترد المياه ؟ قال : نعم فقال عبد الله والله ما أرى قومى على بعد دارهم ، وكثرة عددهم يرضون بهذا ، ثم إن عبدالله أوصل عمراً لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما الان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ، ومكناه من الصدقات .

كتاب هوذة بن على

ووجه - عليه الصلاة والسلام - (سليط بن عمرو العامرى) - رضى الله عنه - بكتاب إلى هوذة بن على ملك اليمامة وفيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هوذة بن على

سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك) .

فلما جاء الكتاب كتب فى رده :

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك .

ولما بلغ ذلك رسول الله قال : لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه ، فلم يلبث أن مات منصرف الرسول - ﷺ - من فتح مكة وكان - عليه الصلاة والسلام - يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

السنة السابعة غزوة خيبر

وفى محرم السنة السابعة أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالتجهز لغزو يهود خيبر الذين كانوا أعظم مهيج للأحزاب ضد رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة الخندق ، والذين لايزالون مجتهدين فى محالفة الأعراب ضد رسول الله ـ ﷺ ـ كما قدمنا ذلك فى قصة كعب بن الأشرف ، وقد استنفر رسول الله لذلك من حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية ، وجاء المخلفون عنها ليؤذن لهم ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام : لا تخرجوا معى إلا رغبة فى الجهاد ، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئا ، وأمر مناديا ينادى بذلك ، ثم خرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد أن ولى على المدينة (سباع بن عرفطة الغفارى) ـ رضى الله عنه ـ وكان معه من أزواجه (أم سلمة) رضى الله عنها ، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر التى تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربى رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء فقال ـ عليه الصلاة والسلام : (ارفقوا بأنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريباً وهو معكم) وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلا بعضها عن بعض وهى (حصون النطاة) و(حصون الكتيبة) و(حصون الشق) .

والأولى ثلاثة : حصن ناعم وحصن الصعب وحصن قلة .

والثانية حصنان : حصن أبى وحصن البرىء .

والثالثة ثلاثة حصون : حصن القموص وحصن الوطيح وحصن السلالم .

فبدأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بحصون النطاة وعسكر المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل ، وأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا ، فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة ولما راى ـ عليه الصلاة والسلام ـ تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ، ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع فى ذلك اليوم شيئا وفيه مات محمود[1] بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنهما وصار ـ عليه الصلاة والسلام ـ يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ويخلف على العسكر أحد المسلمين حتى إذا كانوا فى الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو (عمر بن الخطاب) ـ رضى الله عنه ـ بيهودى خارج فى جوف الليل ، فأتى به رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولما أدرك الرجل الرعب قال: إن أمنتمونى أدلكم على أمر فيه نجاحكم فقالوا : دلنا فقد أمناك .

فقال : إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غداً فإذا فتح عليكم هذا الحصن غداً فإنى أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات[2] ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح

---

(١) محمود بن مسلمة وأخوه محمد بن مسلمة ، كلاهما صاحبى انصارى ينتهى نسبهما إلى مالك بن الاوس . اسد الغابة . الترجمة ٤٧٦١ و ٤٧٧٤ .

(٢) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها .

بقية الحصون ؛ فإنكم تنصبون المنجنيق ، ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمحمد بن مسلمة : سأعطى الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه ، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها ، حتى قال (عمر بن الخطاب) ـ رضى الله عنه ـ ما تمنيت الإمارة إلا ليلتئذ ، فلما كان الغد سأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن (على بن أبى طالب) ـ رضى الله عنه ـ فقيل له : إنه أرمد ، فأرسل من يأتيه به ، ولما جاء تفل فى عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شىء ، ثم أعطاه الراية فتوجه مع المسلمين للقتال ، وهناك وجدوا اليهود متجهزين ، فخرج يهودى يطلب البراز فقتله علي ، ثم خرج مرحب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه ، فخرج أخوه ياسر فقتله (الزبير بن العوام) ـ رضى الله عنه ـ ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم ، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء إلى الحصن الذى يليه ، وهو حصن الصعب ، وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر ثم تتبعوا اليهود إلى حصن الصعب ، فقاتل عنه اليهود قتالا شديدا حتى رد عنه المسلمون ولكن ثبت الحباب بن المنذر ومن معه ـ رضوان الله عليهم ـ وقاتلوا قتالا شديدا حتى هزموا اليهود ، فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام ، فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ مناديا يقول : كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئاً .

ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن

قلّة فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه .

وفى اليوم الرابع دلهم يهودى على جداول الماء التى يستقى منها اليهود فمنعوها عنهم ، فخرجوا وقاتلوا قتالا شديدا انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشق فتبعهم المسلمون ، وبدأوا بحصن أبى فخرج أهله وقاتلوا قتالا شديدا أبلى فيه أبو دجانة الأنصارى - رضى الله عنه - بلاء حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ، ووجد المسلمون فيه أثاثا كثيرا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب المنهزمون منه إلى حصن البرىء فتمنعوا به أشد التمنع ، وكان أهله أشد اليهود رميا بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه ، فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع فى قلب أهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد ، فوجد فيه المسلمون أوانى لليهود من نحاس وفخار فقال - عليه الصلاة والسلام : اغسلوها واطبخوا فيها ، ثم تتبع المسلمون بقايا العدو إلى حصون الكثيبة وبدأوا بحصن القموص فحاصروه عشرين ليلة ، ثم فتحه الله على يد (علي بن أبى طالب) - رضى الله عنه - ومنه سبيت (صفية بنت حيى بن أخطب) ثم سار المسلمون لحصار حصني الوطيح والسلالم ، فلم يقاوم أهلهما بل سلموا طالبين حقن دمائهم ، وأن يخرجوا من أرض (خيبر) بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوبا واحداً على ظهره فأجابهم رسول الله - ﷺ - إلى ذلك ، وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة

قوس عربية ووجدوا صحفا من التوراة فسلموها لطالبها ، وقد أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقتل كنانة بن أبى الحقيق ؛ لأنه أنكر حلى حيى بن أخطب ، وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك .

هذا : والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلا ـ رضوان الله عليهم ـ وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلا .

الشاة المسمومة :

وفى هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله ـ ﷺ ـ فأخذ منها مضغة ثم لفظها حيث علم أنها مسمومة ، وأكل منها بشر بن البراء ـ رضى الله عنه ـ فمات لوقته ، واحتجم رسول الله ـ ﷺ ـ وجىء له بالمرأة التي فعلت هذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك ؟ فأجابت ، قلت : إن كان نبيا لن يضره ، وإن كان كاذبا أراحنا الله منه ، فعفا عنها عليه الصلاة والسلام .

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج ـ عليه الصلاة والسلام ـ (صفية بنت حيي) سيد بنى النضير ، وأصدقها عتقها وقد أسلمت ـ رضى الله عنها ـ فشرفت بأمومة المؤمنين .

النهي عن نكاح المتعة

ونهى - عليه الصلاة والسلام - وهو بخيبر عن نكاح المتعة ، وهو النكاح لأجل ، وقد كان حلا فى الجاهلية ، واستعمل فى بدء الإسلام حتى حرمه الشرع فى هذه السنة .

ونهى كذلك عن أكل لحوم الحمر الأهلية فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ، ولم يطعموها .

رجوع مهاجرى الحبشة

(وحين) رجوع المسلمين من خيبر قدم من الحبشة (جعفر بن أبى طالب) ومعه الأشعريون أبو موسى وقومه - رضوان الله عليهم - بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين ، وفرح - عليه الصلاة والسلام - بمقدمهم فرحا عظيما ، وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحا ، وكان مع جعفر (أم حبيبة بنْت أبى سفيان) أم المؤمنين .

وقدم فى هذا الوقت على النبى - عليه الصلاة والسلام - الدوسيون إخوان (أبى هريرة) رضى الله عنه ، وهو معهم ، فأعطاهم أيضاً رسول الله - ﷺ .

فتح فدك

وبعد تمام الفتح أرسل - عليه الصلاة والسلام - من يطلب من يهود فدك[1] الانقياد والطاعة ، فصالحوا رسول

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة .

الله - ﷺ - على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال ، وكانت أرض فدك هذه لرسول الله - ﷺ - خاصة ، ينفق منها على نفسه ، ويعول منها صغير بنى هاشم ، ويزوج منها أيمهم .

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء[1] ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ، ومكثوا فى بلادهم آمنين مطمئنين .

فتح وادى القرى

ثم دعا - عليه الصلاة والسلام - يهود وادى القرى إلى الاستسلام فأبوا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلا وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها - عليه الصلاة والسلام - وترك الأرض فى أيدى أهلها يزرعونها بشطر ما يخرجون منها ، وكذلك صنع بأرض خيبر ، وكان يرسل إليهم عبد الله بن رواحة لتقدير الثمر وكان تقديره شديدا عليهم ، فأرادوا أن يرشوه فقال لهم :

ياأعداء الله ، تعطونى السحت ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىَّ ، ولأنتم أبغض إلى من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على أن لا أعدل .

هذا ، وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر مهما كان بين

---

(١) قرية على ثمانى مراحل من المدينة .

الفريقين من العهود والمواثيق ، ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين .

إسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى فى قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم : خالد بن الوليد المخزومى ، وعمرو بن العاصى السهمى ، وعثمان بن أبى طلحة العبدرى - رضى الله عنهم - فسر بهم - عليه الصلاة والسلام - سروراً عظيماً وقال لخالد :

الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير .

فقال : يارسول الله ادع الله لى أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

فقال له - عليه الصلاة والسلام - : الإسلام يقطع ما قبله .

سـريـة

وفى شعبان بلغه - عليه الصلاة والسلام - أن جمعا من هوازن بتربة[1] يظهرون العداوة للمسلمين ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب فى ثلاثين رجلا فسار إليهم ، ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحداً ، فرجع .

---

(١) واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها .

سرية

(ثم) أرسل (بشير بن سعد الأنصارى) ـ رضى الله عنه ـ لقتال بنى مرة بناحية (فدك) فلما ورد بلادهم ، لم ير منهم أحداً فأخذ نعمهم ، أما القوم فكانوا فى الوادى فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل ، ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالا شديدا حتى قتل غالب المسلمين ، وجرح بشير جرحا شديدا حتى ظن أنه مات ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله ، وأخبره الخبر .

وفى رمضان أرسل ـ عليه الصلاة والسلام (غالب بن عبيد الله الليثى) ـ رضى الله عنه ـ إلى أهل الميفعة[1] فى مائة وثلاثين رجلا فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضا وأسروا آخرين ، وفى أثناء الحرب طارد (أسامة بن زيد) ـ رضى الله عنه ـ رجلاً من المشركين ، ولما رأى المشرك الموت فى يد أسامة تشهد فظن أسامة أن عدوه إنما قال ذلك تخلصا فقتله ، ولما رجع المسلمون إلى المدينة ، وأخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بفعلة أسامة قال : أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله ؟ قال : يارسول الله ، إنما قالها متعوذا من القتل . قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهلا شققت عن قلبه ، فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ فقال : يارسول الله استغفر لى قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكيف بلا إله إلا الله ؟ فمازال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك

---

(١) على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد .

اليوم ، وأنزل الله فى ذلك فى سورة النساء : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾[1] ثم أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسامة ـ رضى الله عنه ـ أن يعتق رقبة ، كفارة لأنه قتل خطأ .

سـريـة

(وفى) شوال بلغه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان ، كانوا مقيمين قريبا من خيبر ، بأرض اسمها (يمن وجبار) للإغارة على المدينة ؛ فأرسل لهم (بشير بن سعد) ـ رضى الله عنه ـ فى ثلاثمائة رجل فساروا إليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أتوا محلتهم ، فأصابوا نعما كثيرا ، وتفرق الرعاء فأخبروا قومهم فرعبوا ولحقوا بعليا بلادهم ، ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما ، ثم رجعوا بالغنائم إلى المدينة .

عمـرة القضـاء

لما حال الحول على عمرة الحديبية خرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمن صد معه فيها ليقضى عمرته ، واستخلف على المدينة (أباذر الغفارى) ـ رضى الله عنه ـ وساق معه الهدى ستين بدنة ، وأخرج معه السلاح حذرا من غدر قريش ، وكان معه مائة فرس عليها (بشير بن سعد) ـ رضى الله عنه ـ

---

(١) النساء ـ ٩٤ .

وأحرم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من باب المسجد المدنى ، ولما انتهى إلى (ذى الحليفة) قدم الخيل أمامه ، فقيل : يارسول الله ، حملت السلاح وقد شرطوا أن لا تحمله فقال ـ عليه الصلاة والسلام : لا ندخل الحرم به ، ولكن يكون قريبا منا ، فإن هاجنا هائج فزعنا له ، فلما كان بـ (مر الظهران) قابله نفر من قريش ، ففزعوا من هذه العدة ، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم ، فجاءه فتيان منهم ، وقالوا : والله يامحمد ما عرفت بالغدر صغيرا ولا كبيرا ، وإنا لم نحدث حدثا ، فقال : إنا لا ندخل الحرم بالسلاح ، ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه متوشحين سيوفهم من (ثنية كداء) وأمامه (عبد الله بن رواحة) ـ رضى الله عنه ـ

يقول : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وطاف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالبيت ـ وهو على راحلته ـ واستلم الحجر بمحجنه ، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة ، لأن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم

نهكتهم حمى يثرب ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام : رحم الله امرءا أراهم من نفسه قوة ، واضطبع عليه الصلاة والسلام بردائه ، وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة ، وفعل مثله المسلمون ، وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، كما رأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى منامه .

زواج ميمونة

وتزوج - ﷺ - وهو بمكة (ميمونة بنت الحارث الهلالية) زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أُحُد وخالة عبد الله بن العباس وهى آخر نسائه زواجا - رضى الله عنهن - ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مَكة حيث كان بسرف[1] ولما خرج - عليه الصلاة والسلام - أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا ثم رجع - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة فرحا مسروراً بما حباه الله به من تصديق رؤياه .

السنة الثامنة

سرية

وفى صفر أرسل - عليه الصلاة والسلام - (غالب بن عبد الله الليثى) - رضى الله عنه - إلى بنى الملوح ، وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد[2] فسار القوم حتى إذا كانوا بقديد التقوا بـ (الحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء) وكان خصما لدوداً للمسلمين فأسروه فقال لهم : ما جئت إلا للإسلام ، فقالوا له : إن تكن مسلما لن يضرك رباط ليلة وإلا استوثقنا منك ، ثم ساروا حتى وصلوا محلة بنى الملوح فاستاقوا النعم والشاء وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به ولكن من الله على المسلمين فأرسل

(١) موضع قرب التنعيم .
(٢) موضع بين عسفان وقديد .

سيلا شديداً حال بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نعمهم تساق وهم لا يقدرون على ردها.

سـريـة

ولما رجع غالب إلى المدينة ظافراً أرسله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى مائتى رجل ليقتص من بنى مرة بفدك ، وهم الذين أصابوا سرية (بشير بن سعد) ـ رضى الله عنه ـ فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه فقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمراً فإنه لا رأى لمن لا يطاع ثم آخى بين الجند فقال : يافلان أنت وفلان ويافلان أنت وفلان لا يفارق أحد منكم زميله ، وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك فيقول : لا أدرى ، فإذا كبرت فكبروا » .

فلما أحاطوا بالعدو وكبر كبروا وجردوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد واستاقوا نعمهم ، فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة .

سـريـة

(وفى) ربيع الأول أرسل ـ عليه الصلاة السلام ـ (كعب ابن عمير الغفارى) رضى الله عنه إلى (ذات أطلاح) من الارض الشام فى خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا كثيراً فدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا وقاتلوا . وكانوا أكثر عدداً

فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم (كعب بن عمير) فإنه نجا وأتى بالخبر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشق عليه ، وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم ، فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك .

غزوة مؤتة

جهز ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى جمادى الأولى جيشا للقصاص ممن قتلوا (الحارث بن عمير الأزدى) رسوله إلى أمير (بصرى) وأمر عليهم (زيد بن حارثة) وقال لهم : إن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب ؛ فإن أصيب فعبد الله بن رواحة رضوان الله عليهم وكان عدة الجيش ثلاثة آلاف ، فساروا وشيعهم ـ عليه الصلاة السلام ـ وكان فيما وصاهم به :

« اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين . فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانيا ، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء » .

ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤتة[1] مقتل (الحارث ابن عمير) وهناك وجدوا الروم مجمعين لهم جمعا عظيماً منهم . ومن العرب المتنصرة ؛ فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه : أيرسلون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) قرية قريبة من الكرك وهى مشارف الشام .

يطلبون منه مدداً ، أم يقدمون على الحرب ؟ فقال عبد الله بن رواحة :

ياقوم ، والله إن الذى تكرهون هو ما خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة . ما نقاتل إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فإنما هى إحدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة .

فقال الناس : صدق والله ابن رواحة . ومضوا للقتال فلقوا هذه الجموع المتكاثرة فقاتل زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ حتى استشهد فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وهو يقول :

ياحبذا الجنة واقترابها * طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها * كافرة بعيدة أنسابها
على إذ لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد ـ رضى الله عنه ـ فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد فقال يخاطب نفسه :

أقسمت يانفس لتنزلنه * طائعة أو لا لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه * مالى أراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة * هل أنت إلا نطفة فى شنه

ثم اقتحم بفرسه المعمعة ولم يزل يقاتل ـ رضى الله عنه ـ حتى استشهد ، فهم بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء فقال لهم (عقبة بن عامر) : ياقوم يقتل الإنسان مقبلا خير من أن

يقتل مدبراً فتراجعوا ، واتفقوا على تأمير الشهم الباسل (خالد بن الوليد) ـ رضى الله عنه ـ وبهمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع ؛ إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً ؛ فإنه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالا شديداً وفى غده خالف ترتيب العسكر فجعل الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة[1] ، والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان ، لأن الكفار ظنوا أن الأمداد[2] تتوالى للمسلمين ، وخافوا أن يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص ، وبذلك انقطع القتال .

وقد نعى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وكانت عينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . وجاءه رجل فقال : يارسول الله ، إن نساء جعفر يبكين ، فأمره أن ينهاهن ، فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهن فلم يطعن ، فأمره فذهب ثانيا ثم جاء فقال : والله لقد غلبننا . فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : احث فى أفواههن التراب ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون

---

(١) الساقة : مؤخرة الجيش .
(٢) جمع مدد .

يقولون لهم يافرار فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل هم الكرار .

ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة ، ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراهم أن ذلك من مكايد الحرب ، وأثنى على خالد فى مهارته .

سـريـة

وفى جمادى الآخرة بلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن جمعا من (قُضاعة) يتجمعون فى ديارهم وراء (وادى القرى) ليغيروا على (المدينة) فأرسل لهم (عمرو بن العاص) فى ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين ، ثم أمده بأبى عبيدة بن الجراح فى مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر ، فلحقوا عمراً قبل أن يصل إلى القوم ، وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو فأنكر عليه عمر بن الخطاب فقال أبو بكر : إنما بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا رئيسا لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه فامتثل ، ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين ، فجمعوا غنائمهم ، وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين ، وبينما هم فى الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة فى ليلة باردة فلما أصبح قال : إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[1] ثم تيمم وصلى ، ثم أمر بالسير حتى

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٥ .

إذا وصلوا المدينة قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل عن أنباء سفرهم كما هى عادته فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جنباً ، فسأله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فقال :

منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم .

ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين .

وصليت جنبا لأن الله يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ، وإن أنا اغتسلت هلكت فتبسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأثنى على عمرو خيراً .

سـريـة

وفى رجب أرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا عبيدة عامر بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ فى ثلاثمائة فارس لغزو (قبيلة جهينة) التى تسكن ساحل البحر ، وزود ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الجيش جرابا من التمر ، فساروا حتى إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو وقد فنى زادهم حتى أكلوا الخبط وهو ورق السمر يبلونه بالماء ويأكلونه إلى أن تقرحت أشداقهم ، وكان فى القوم الكريم ابن الكريم (قيس بن سعد بن عبادة) رضى الله عنه فنحر لهم ثلاثة جزر فى كل يوم جزور ، وفى اليوم الرابع أراد أن ينحر ، فنهاه رئيسه أبو عبيدة ؛ لأن قيسا كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه ؛ فخاف أبو عبيدة أن لا يفى له أبوه بما استدان ،

فقال قيس : أترى سعداً يقضي ديون الناس ، ويطعم فى المجاعة ، ولا يقضي دينا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله ؟ ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة ؛ فقال قيس بن سعد لأبيه : كنت فى الجيش فجاعوا .. ، قال : انحر . قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا .. ! قال : انحر ، قال : نحرت . قال : ثم جاعوا .. ! قال : انحر . قال : نحرت . قال : ثم جاعوا قال : انحر . قال : نهيت .

غزوة الفتح الأعظم

إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه وأزال موانعه ، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - يعلم أنه لا تذل العرب حتى تذل قريش ، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة ، فكان يتشوف لفتحها ، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى (الحديبية) وهو سيد من وفى ، ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه ؛ فقد علمت أن (قبيلة خزاعة) دخلت فى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و(قبيلة بكر) دخلت فى عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كمنت نارها بظهور الإسلام فلما حصلت الهدنة ، وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على مسمع من رجل خزاعى ، فقام هذا وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد ، وتذكر (بنو بكر) ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم ، واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سرا بالعدة والرجال ، ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون فقتلوا

منهم ما يربو على العشرين ، ولما رأى ذلك حلفاء السيد الأمين - صلى الله عليه وسلم - أرسلوا منهم وفداً برياسة (عمرو بن سالم الخزاعى) ليخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر ، قال : والله لأمنعنكم مما أمنع نفسى منه .

أما قريش فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التى أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم (أبا سفيان بن حرب) إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فركب راحلته ، وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء المدينة نزل على (أم المؤمنين أم حبيبة) بنته - رضى الله عنها - وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فطوته عنه ، فقال : يابنية أرغبت به عنى أم رغبت بى عنه ؟ فقالت : ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأنت مشرك نجس . فقال : لقد أصابك بعدى شر . ثم خرج من عندها وأتى النبى فى المسجد وعرض عليه ما جاء له ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : هل كان من حدث ؟ قال : لا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : فنحن على مدتنا وصلحنا . ولم يزد عن ذلك ، فقام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش علهم يساعدونه على مقصده فلم يجد منهم معينا ، وكلهم قالوا : جوارنا فى جوار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئا فاتهموه بأنه خانهم ، واتبع الإسلام فتنسك عند الأوثان لينفى عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتجهز للسفر ،

وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة ، فقال له : يارسول الله ، أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكن غدروا ونقضوا . ثم استنفر - صلى الله عليه وسلم - الأعراب الذين حول المدينة ، وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وطوى - صلى الله عليه وسلم - الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر ، فتعلم قريش ، فتستعد للحرب والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها ، فدعا مولاه - جل ذكره - وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادهم » . فقام (حاطب بن أبى بلتعة) رضى الله عنه أحد الذين شهدوا بدرا وكتب كتابا لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جعل فأعلم الله رسوله ذلك ، فأرسل فى أثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا (روضة خاخ) فإن بها (ظعينة)[1] معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقوا حتى أتوا الروضة ، فوجدوا بها المرأة ، فقالوا لها : أخرجى الكتاب . قالت : ما معى كتاب ، فقالوا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ؛ فأخرجته من عقاصها فأتوا به رسول الله فقال - صلى الله عليه وسلم - : ياحاطب ما هذا ؟ قال : يارسول الله لا تعجل علىّ إنى كنت حليفا لقريش ، ولم أكن من

(١) المرأة المختفية فى الهودج ثم صارت علما على كل امرأة .

أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ولم أفعله ارتداداً عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال - صلى الله عليه وسلم - : أما إنه قد صدقكم . فقال عمر : دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق .. ! فقال : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ ، وفى ذلك أنزل الله سورة الممتحنة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(١) ثم سار - صلى الله عليه وسلم - بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ، ولما وصل (الأبواء) لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه ، وهما : ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر ، وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة شقيق زوجة أم سلمة ، وكانا يريدان الإسلام فقبلهما - صلى الله عليه وسلم - وفرح بهما شديد الفرح ، وقال : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) .

---

(١) سورة الممتحنة آية ١ .

ولما وصل ـ صلى الله عليه وسلم ـ (الكديد) رأى أن الصوم شق على المسلمين ، فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضا . وقد قابل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله فأمره أن يعود معه إلى مكة ، ويرسل عياله إلى المدينة . ولما وصل ـ صلى الله عليه وسلم ـ (مر الظهران) أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكان قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ؛ فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران ؛ فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبو سفيان: ماهذه لكأنها نيران عرفة ؟ فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان فلما سار قال للعباس : احبس أبا سفيان عند القبائل عند حطم[1] الجبل حتى ينظر إلى المسلمين فحبسه العباس ، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبى سفيان ، وهو يسأل عنها ، يقول : مالى ولها ؟ حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة فقال سعد : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة فقال أبو سفيان ياعباس حبذا يوم الذمار[2] ثم جاءت كتيبة ، وهى أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد

(١) الحطم الكسر .
(٢) القرابة والأصحاب .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام : كذب سعد ، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فى الكعبة ثم أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تركز رايته بالحجون[1] وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من (كدى)[2] ودخل هو من أعلاها من (كداء) ونادى مناديه من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن وهذه أعظم منة له .

المستثنون من الأمن :

واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة منهم : عبد الله ابن سعد بن أبى سرح الذى أسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم ارتد وافترى الكذب على الأمين المأمون ، فكان يقول : إن محمدا كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم فيقول : كل جيد .

ومنهم : عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وهبار ابن الأسود ، والحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية وكعب بن زهير ، ووحشى قاتل حمزة ، وهند بنت عتبة زوج أبى سفيان وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل .

فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون

---

(١) جبل بمعلاة مكة .

(٢) كدى كقرى جبل مسفلة مكة على طريق اليمن وكداء كسحاب جبل بأعلى مكة

صدره فقاتلهم ، وقتل منهم أربعة وعشرين وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة .

وأما جيش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يصادف مانعا وهو - عليه الصلاة والسلام - راكب راحلته ، منحن على الرحل تواضعا لله وشكرا له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمس الرحل ، وأسامة بن زيد - رضى الله عنه - رديفه[1] وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل إلى (الحجون) موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها (أم سلمة) و (ميمونة) فاستراح قليلا ، ثم سار ، ويجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ (سورة الفتح) حتى بلغ البيت وطاف سبعاً على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل - عليه الصلاة والسلام - يطعنها بعود فى يده ، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد .

ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت ، وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم فى أيديهما الأزلام ، فقال - عليه الصلاة والسلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط .

وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع

---

(١) جالس خلفه - صلى الله عليه وسلم -

بلاد العرب إلا قليلا ، ويوشك أن نذكر للقارىء اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية .

(العفو عند المقدرة)

ثم إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل الكعبة ، وكبر فى نواحيها ، ثم خرج إلى مقام إبراهيم ، وصلى فيه ، ثم شرب من زمزم ، وجلس فى المسجد ، والناس حوله والعيون شاخصة إليه ينتظرون ماهو فاعل بمشركى قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه ، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التى يلزم أن يتعلم منها المسلم أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس . فقال ـ عليه الصلاة والسلام : يامعشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ويرحم الله الإمام البوصيرى حيث قال :

وإذا كان القطع والوصل للـ
ـه تساوى التقريب والإقصاء
وسواء عليه فيما أتاه
من سواه الملام والإطراء[1]
ولو أن انتقامه لهوى النفـ
ـس لدامت قطيعة وجفاء

---

(١) الملام الذم والإطراء المدح

قــام لله فى الأمــور فــأرضى اللــ
ـه منــه تبــايــن ووفــاء

فـعلــه كلــه جميــل وهــل ينضــ
ـح إلا بمــا حــواه الإنــاء

ثم خطب ـ عليه الصلاة والسلام ـ خطبة أبان فيها كثيرا من الأحكام الإسلامية منها :

أن لايقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ، والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد الصبح والعصر ، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر .

ثم قال :

يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١) ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإسلام ، وممن أسلم فى هذا اليوم :

معاوية بن أبى سفيان ، وأبو قحافة والد الصديق ، وقد فرح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيراً بإسلامه وجاءه رجل يرتعد خوفا ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (هون

---

(١) الحجرات ـ ١٣

عليك فإني لست بملك ؛ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)[1] .

مصير المهدرين :

أما الذين أهدر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دمهم : فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فمنهم : من حقت عليه كلمة العذاب فقتل ، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم ، فعبد الله بن سعد بن أبى سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان ، وطلب منه أن يستأمن له رسول الله ، فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ، ثم أتى به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : يارسول الله ، قد أمنته . فبايعه ، فأعرض عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرارا ثم بايعه . فلما خرج عثمان وعبد الله قال ـ عليه الصلاة والسلام : أعرضت عنه ليقوم إليه أحدكم فيضرب عنقه فقالوا هلا أشرت إلينا ، فقال : (لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين) .

وأما عكرمة بن أبى جهل فهرب فخرجت وراءه زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وكانت قد أسلمت قبل الفتح وقد أخذت له أمانا من رسول الله فلحقته ، وقد أراد أن يركب البحر ، فقالت : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم ، لا تهلك نفسك وإنى قد استأمنته لك فرجع ولما رآه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وثب قائما فرحا به ، وقال مرحبا بمن جاءنا مهاجراً مسلما ، ثم أسلم ـ رضى الله عنه ـ وطلب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستغفر له كل

---

(١) الخبز الجاف

عداوة عاداه إياها فاستغفر له ، وكان ـ رضى الله عنه ـ بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام .

وأما هبار بن الأسود فهرب واختفى حتى إذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجعرانة(١) جاءه مسلما وقال : يارسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك(٢) وصلتك وصفحك عمن جهل عليك ، وكنا يارسول الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل فقال ـ عليه الصلاة والسلام : قد عفوت عنك .

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية المخزومى فأجارتهما أم هانىء بن أبى طالب فأجاز ـ عليه الصلاة والسلام ـ جوارها ، ولما قابل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحارث بن هشام مسلماً ، قال له : الحمد لله الذى هداك ، ما كان مثلك يجهل الإسلام ، وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة .

وأما صفوان بن أمية فاختفى ، وأراد أن يذهب ويلقى نفسه فى البحر فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحى ، وقال : يانبى الله إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر ، فأمنه فإنك قد أمنت الأحمر(٣) والأسود . فقال ـ عليه الصلاة والسلام : أدرك ابن عمك فهو آمن فقال :

---

(١) موضع بين مكة والطائف وبعضهم يضبطه بسكون العين وفتح الراء مخففة .

(٢) أى البر الذى كان يعود علينا منك .

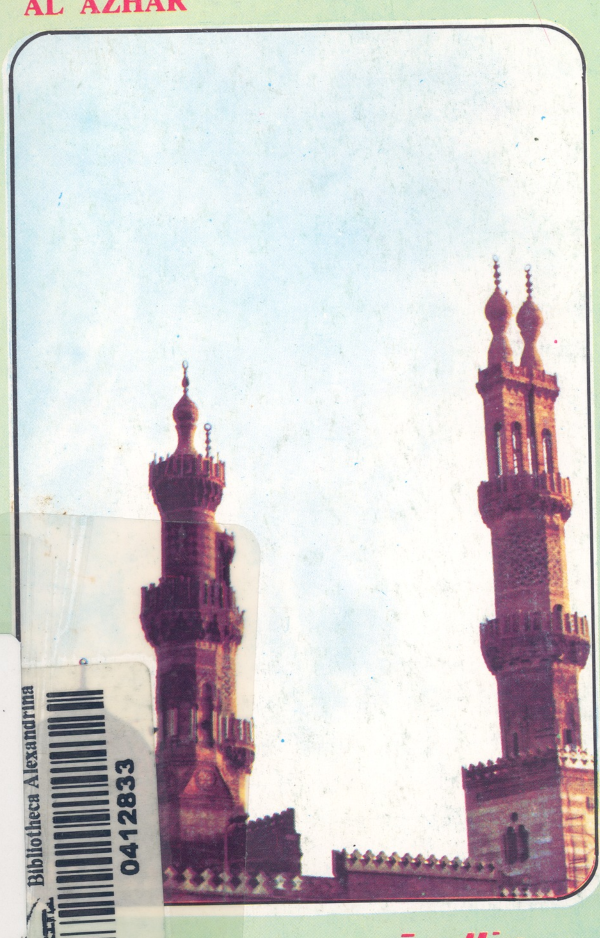
(٣) كناية عن جميع الناس .

أعطنى علامة ، فأعطاه عمامته ، فأخذها عمير، حتى إذا لقى صفوان ، قال له : فداك أبى وأمى ، جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ، وهو ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك . قال صفوان : إنى أخافه على نفسى قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وأراه العمامة علامة الأمان ، فرجع إلى رسول الله ، وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتنى ؟ قال : صدق ، قال أمهلنى بالخيار شهرين .. ! قال : أربعة أشهر ، ثم أسلم ـ رضى الله عنه ـ وحسن إسلامه .

وأما هند بنت عتبة فاختفت ، ثم أسلمت ، وجاءت إلى رسول الله فرحب بها ، وقالت له : يارسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلىَّ أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك .


طبعت بمطابع روز اليوسف

AL AZHAR



مطابع روزاليوسف